في الأدب الشرقي

نامـــق كمال

للدكتور عبد الوهاب عزام

أبو الأدب التركي الحديث الذي نزل من أفكار الترك وقلوبهم منزلة لم ينزلها غيره. والذي لاتزال آثاره مدونة في التاريخ التركي الحديث، محفوظة في قلوب الجيل الحاضر. ولد سنة ١٢٥٦هـ في أسرة مجيدة يجمع تاريخها كثيرا من كبار الدولة العثمانية وكان أبوه مصطفى عاصم بك فلكيا، وجـــده شمس الدين بك رئيس المابين في عهد السلطان سليم الثالث، وأبو شمس الدين قعبودان أحمد راتب باشا الذي ينتهي نسبه الى الصدر الأعظم طريال عثمان باشا.

وأبو الشاعر من يكي شهر وأمه من قونيجه في ألبانيا. وكان أبوه دينا متصوفا، فلما ولد المولود العظيم أخذه الى أحد الدراويش فدعا له أن «يكون كمالا للاسلام» فسمي كمال في دار أبيه ودرس فيها درس بها العربية والفارسية والفرنسية، ولم يتعلم في المدارس الا تسعة أشهر.

وفي سن الثانية عشرة ذهب مع جده الى قارص وكان يمضي أكثر أوقاته في الصين، ثم ذهب الى صوفيا حيث شرع يقرض الشعر وهو في الرابعة عشرة من عمره. ثم عاد الى استانبول وهو ابن ١٧ فصار مترجما في الباب العالي واتصل بجماعة من الأدباء الذين يكبرون الشعراء القدماء ويســـيرون على نهجهم فشارك في الشعر وعرف به ونشر ديوانا صغيرا تسمي فيه «نامقا» كدأب شعراء الفرس والترك في اتخاذ اسم شعري يردده الشاعر في منظوماته فيعرف به.

وكان شناسي افندي أحد أدباء الترك الذين تعلموا في فرنسا يحتذي الشعراء الفرنسيين ويحرض ناشئة الأدباء على اتباع أسلوب جديد في الأدب، وكان لمقالاته في جريدته «تصوير أفكار» أثر عظيم على «نامق كمال» واضرابه من الشبان، فاعجب كمال به وشارك في تحرير جريدته ودعا الى تجديد تركيا في السياسة والأدب وعظمت مكانته. فلما فر شناسي افندي الى باريس ١٢٨٠هـ (١٨٦٤م) خلفه في تحرير الجريدة، فانتشرت «تصوير أفكار» انتشارا عظيما.

وقد ضاقت الحكومة العثمانية ذرعاً بمقالاته فأرادت أن تشغله ببعض المناصب فجعل متصرفا للقلعة السلطانية في غليولي زمناً قصيراً وهو في سن ٢٣. وبعد حين أريد ارساله سفيراً الى بلاد العجم فأبى. وانتهى الامر بينه وبين الحكومة الى أن فر هو وجماعة من أنداده الى لندره سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٦م) ويقال انه ذهب اليها اجابة لدعوة مصطفى فاضل باشا ونشر في لندرة جريدة «المخبر» ثم نشرها في باريس ونشر بعدها جريدة «الحرية» وفي باريس درس الحقوق والاقتصاد الســـياسي وترجم بعض الكتب من الفرنسية.

ولما مات الوزير عالي باشا سنة ١٢٨٧هـ رجع كمال الى استانبول فنشر جريدة «عبرت» فصارت أعظم الجرائد التركية. ولا يزال أدباء الترك يحرصون على صفحات هذه الجريدة ومقالاتها، وكتب اذ ذاك قصة «وطن ياخود سلستريا» فلم تحتمل الحكومة جرأته وصراحته، ففتته الى قبرص فحبس بها وكتب هناك قصته الأخرى «عاكف بك».

ولما تولى السلطان مراد رجع الى استانبول بعد أن أقام في منفاه ٣٨ شهراً، وشارك مدحت باشا وضيا باشا في تحرير الدستور.

ولما تولى السلطان عبد الحميد لم يصبر على أقوال كمال وأفعاله، فأخذ وحبس خمسة اشهر ونصف، شغل أثناءها بقراءة التاريخ ابتغاء أن يكتب تاريخاً للجيش العثماني. ولما برأته المحكمة مما اتهم به نفاه السلطان الى جزيرة متلين وهنالك كتب قصائد أعرب فيها عن شكاته وحزنه، وكتب قصتين «جلال الدين خوارزم شاه» و «جزمي» تناول فيهما بعض حادثات التاريخ الاسلامي. ثم جعل متصرفاً للجزيرة التي هو بها ثم نقل الى رودس وكانت اكثر ملاءمة

لصحته . وفى رودس شرع يكتب تاريخ الدولة العثمانية وقد جمع بها مكتبة حافلة مكنته من التأليف ، ثم جعل متصرفا لمتلين فعاد اليها وواصل كتابة تاريخه على رغم مرضه ، حتى منعت الحكومة ان يطبع هذا التاريخ وأمرته ألا يستمر فى كتابته . وبعد سنة توفى سنة ١٣٠٥ هـ .

* * *

لايتسع المجال هنا لتعداد مؤلفات نامق كمال ، ولكن يمكن جمالها فى الديوان وثماني قصص ومؤلفات تاريخية ، منها « اوراق پريشان » التى ترجم فيها لصلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح وسليم الأول ونوروز بك ، ومقدمة فى تاريخ الرومان والتاريخ الاسلامى ، وكتاب ردّ فيه مزاعم رينان الفرنسوى سماه : « رينان مدافعه نامه‌سى » وهو من أحسن ماكتب في رد ماكتبه رينان عن الاسلام . ومقالات عديدة هي من أروع آثاره .

ويتجلى فى كتب كمال حماسته وغيرته واخلاصه في سبيل وطنه والاسلام ، كما يتجلى الخلق العظيم ، والنفس الكبيرة ، والعزيمة الماضية ، والصبر على المكاره ، والخيال الرائع ، والتصوير الجميل ، والأعراب الحرّ عن آرائه ومشاعره .

ولا ريب أن كمالا هو خالق النثر التركى الحديث ، والذى مهد للأدباء الطريقة المثلى فى الشعر بعد أن هداه اليها شناسي افندى :

وهذه قطع من آثار نامق كمال وان آثاره لأعظم وأكثر من أن تبين عنها هذه القطع الصغيرة : قال من مقال منشور عن الشعر والشعراء :

— ١ —

الشاعر مخلوق من البسمات الحزينة : بسمات الطبيعة فى أشد أوقاتها وجدا وولها .

ترى في ضحكه أثر البكاء كقطرات الندى على صفحة الورد ، وتلوح في بكائه سمات الابتسام كقوس قزح فى السحاب المكفهر . هو أشد الخلائق استئساراً للطبيعة ولكنه يحاول أن يسمو فوقها ، بينا هو لا يحسن تدبير أمره ، يبغى أن يدفع بذراعيه الضعيفتين كرة الارض إلى مركز كمال جديد ومحور سعادة آخر ، فاذا عيّ بما يريد أرسل أناته الحزينة كأنات البلابل فى الاقفاص خلف الحجب السوداء ، او صاح صياح النسور قد حلقت فى اللوح حتى ضاق بأنفاسها الهواء فأهوت مسرعة تملأ الهواء ، صرصرتها .

الشعر هذه الصيحات الأليمة ، والشعراء هؤلاء البؤساء الذين فطروا على هذه الفطرة ، لا من يؤلف التفاعيل والأفاعيل من خمسة عشر حرفاً أو يستطيع أن يؤلف القوافى من ثمان وعشرين كلمة . . الخ

— ٢ —

وهذه قطعة منظومة ختم كل بيت منها بكلمة « على رغم » فتمثل فى هذا التكرار اصرار النفس الكبيرة وثباتها على الدهر القلّب :

لست أبالى ان اعود تراباً على رغم عمري ، ولست أفرّ من عنصرى ، على رغم الممات .

لا تجعلن نفسك أذلّ من التراب الذى تطؤه ، اثبت على عزيمتك على رغم الدهر الذى لا ثبات له .

ما تمثل لى الباطل حقاً قط ، ولقد اعتمدت على « الحق » على رغم الآلهة كلها .

لا يخفين داهيةٌ آراءه ، أعرض على الناس ما تعرف على رغم الدهاة أجمعين .

إن كان لا بد للحياة على ظهر الارض من تمريغ الوجه بالتراب فاختر بطن التراب على رغم الحياة

رأيت مسير الكائنات شراً فاعتزلتها ، ووقفت فى هذه السبيل وحيداً على رغم الكائنات .

وما التفت قط الى الحظوظ الفاتنة على رغم مالاح فى طالعى من آلاف الحظوظ .

— ٣ —

وهذه أبيات من قصيدة حماسية طويلة .

رأيت ولاة العصر قد حادوا عن الاخلاص والصدق فهجرت المناصب عزيزا سعيدا . ان جرثومة هذا الجسم تراب الوطن ، فماذا يفيده أن يمزقه الجور والمحنة فى سبيل الوطن ؟

لا يعين الظلمة الا الأوغاد كما ينعم الكلب فى خدمة الصياد السفاح .

من يخش لوم الناس ولا يستح من نفسه فنفسه أحقر الناس عنده .

ان انتقام العقلاء من الدهر أن يعتبروا بحادثاته فيزدادوا جدا وصرامة واقداما .

انتصار الامة فى اتحاد قلوبها والرحمة فى اختلاف آرائها

ان عزيمة الرجل المكين تدير العالم ، والدنيا فى اضطراب من ثبات أولى العزم :

ليس على الاسد المسلسل عار ، ولكن العار على الفلك الذى ينصب لحرب أولى الهمم .

نحن سلالة الكرام من بنى عثمان اختمرت طينتنا بدم الشهادة

(اليقيه على صفحة ٣٠)